فن التوقيعات الأدبية عند العرب[1]

د.عمرو رابحي
كلية الآداب واللغات جامعة البويرة.

ملخص البحث:

تعتبر التوقيعات من الفنون الأدبية التي نشأت مع حركة التدوين التي عرفها صدر الإسلام ولاسيما العهد الراشدي الذي عرف الكثير من التطورات أبرزها تدوين القرآن الكريم والمراسلات التي كان يقوم بها الخلفاء لولاتهم وعمالهم في الأقاليم وازدادت أهمية بعد اتساع رقعة الخلافة وتعددت مناحي الحياة، والتوقيعات كما هو معلوم عبارة موجزة تصدر عن الخليفة أو الوزير للإجابة عن أمر كتظلم أو عزل أو نصح أو ما إلى ذلك، وكانت هذه التوقيعات عادة ما تكون آية أو حديثا, أو حكمة أو مثلا سائرا، أو كلمة واعظة من الخليفة تؤدي المعنى المراد وكان الهدف منها تيسير الأمور وسياسة الأمة وتوجيهها، هذا وعرضت في هذا البحث تلك المراجع والمؤلفات التي تناولت هذا الفن وذكرت من بينها على سبيل المثال لا الحصر العقد الفريد لابن عبد ربه وخاص الخاص للثعالبي وجمهرة رسائل العرب وصبح الأعشى للقلقشندى وغيرها وإن كانت التوقيعات متفرقة في كتب أخرى تحتاج إلى جهود الباحثين والمهتمين لجمعها وتصنيفها.

الكلمات المفتاحية : التوقيعات؛ التدوين؛ الكتابة؛ المراسلات.

Research Summary:

The signatures of the literary arts that emerged with the movement of codification known to the origin of Islam, especially the Rashidi era, which has known many developments, notably the codification of the Koran and correspondents, which was performed by the caliphs and their workers in the provinces and increased importance after the expansion of the succession and

1 تاريخ الايداع : 2017/12/13 تاريخ الموافقة : 2018/01/18

multiple walks of life, and signatures as known A brief statement issued by the Caliph or the Minister to answer an order such as a grievance, dismissal, advice, etc. These signatures were usually a verse or a Hadith, a wisdom or a traveling example, or a word and a sermon from the Caliph, the mother And presented in this research those references and literature that dealt with this art, including, but not limited to the unique contract of Ibn Abed Rabbo and special private Thalabi and the mass of Arab letters and Sobh al-Ashi for Alkalsandi and others, although the signatures scattered in other books need the efforts of researchers and interested For compilation and classification.

Keywords: Signatures; Blogging; Writing; Correspondence

مقدمة

تعد التوقيعات من الفنون الأدبية التي صاحبت رحلة التدوين أو الكتابة الديوانية، وفي هذا المقال المتواضع حاولت جمدي أن أتعرض لهذا الفن ولو بنظرة بسيطة من خلال تتبعي له منذ نشأته مبينا تلك المرحل التي قطعها ولاسيما في عهوده الزاهرة مثل العهد الراشدي مرورا بالعصر الأموي فالعباسي الأول والثاني- وهو عصر ازدهارها- وقد أوردت طائفة لا بأس بها من توقيعات الخلفاء والكبراء ولم أغفل تطور هذا الفن في المغرب والأندلس فضلا عما جاء عن العجم من توقيعات.

نشأة الكتابة والتدوين عند العرب:

لم يؤثر عن العرب في الجاهلية أنهم كانوا يكتبون أو يدونون لغلبة المشافهة عليهم والارتجال سواء في الخطابة أو الشعر أو الوصايا أو المنافرة أو غير ذلك، وإن كانت هناك بعض الآراء التي تؤكد أن العرب كانوا يكتبون ولكن على نطاق ضيق وقد ارتبطت الكتابة عندهم بتدوين القرآن الكريم بداية من أول سورة تدعو إلى القراءة والكتابة وتم هذا الأمر عندما شرع الصحابة الكرام بجمع القرآن في مصحف واحد على عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان_رضي الله عنه_، ومن ثمة بدأت الكتابة وإن كانت في بداياتها الأولى على نطاق محدود وزادت أهميتها فيما بعد العصور التي تلت فترة صدر الإسلام، ومن هنا اتسعت رقعة الخلافة وازدادت معها تلك المراسلات التي كانت تحمل في طياتها توقيعات الخلفاء إلى الولاة، كانت الكتابة في عهد النبي _صلى الله عليه وسلم_ قليلة ولم يكن ممن يعرف الكتابة إلا قلة، عدهم البعض سبعة عشر ومن النساء أقل وبعد عصر النبوة ازدادت العناية بالكتابة لحاجة الناس للتوثيق والمراسلات كما هو الحال لدى الخلفاء كما أسلفنا القول وارتبطت التوقيعات بالكتابة كارتباط التدوين بالقرآن وأنا هنا لست بحاجة للتعريف بالخط الذي تطور مع الكتابة التي،ازدهرت أيما ازدهار حتى صار للكتاب والموقعين شأن وأي شأن وتبارى الناس في البلاغة والإيجاز وحسن التوقيع وفي هذا يقول ابن خلدون" ومن خطط الكتابة التوقيع وهو أن يجلس الكاتب بين يدي السلطان في مجالس حكمه وفصله ويوقع على القصص المرفوعة إليه أحكامها والفصل بما تلقاه من السلطان بأوجز لفظ وأبلغه

فإما أن تصدر كذلك وإما أن يحذو الكاتب على مثالها في سجل يكون بيد صاحب القصة ويحتاج الموقع إلى عارضة قوية من البلاغة يستقيم بها توقيعه" [2].

وبصرف النظر عن فن التوقيعات كثيرة هي العلوم والفنون التي ظهرت بمجيء الإسلام وبالأحرى مع نزول القرآن الكريم،وهذه العلوم ظهرت لدواع وظروف أملتها الحاجة، أودعت إليها الضرورة،التي يتطلب وجودها،والحرص عليها أسباب

- منها حفظ القرآن الكريم من اللحن وذلك بعد دخول العد يدمن الشعوب في الإسلام والتي لم تكن من أصول عربية.

فهم النصوص القرآنية وتعليم اللغة العربية للأعاجم الذين اعتنقوا الإسلام باعتبار أن المصحف الشريف أنزل بلسان عربي وهو أهم مصدر تشريعي.

انتشار بعض الأخطاء اللغوية وشيوعها بين الناس، فظهرت بعض العلوم لتصويب هذه الأخطاء وتصحيحها، والعمل على إيجاد ما يدرأ عن القرآن، تلك الأخطاء والزلات اللغوية ،التي تغير بعضا من معانيه، وهنا تفطن البعض من الرعيل الأول، في إيجاد سبل أو طرق كفيلة للحيلولة دون الوقوع في مثل هذه الأخطاء،وعلى إثرها برزت بعض العلوم التي تقوم على ضبط وتقويم ألسنة القراء، والمتعلمين من الوقوع في مطبات القراءة، ومما ذكر في هذا المقام،حول منشأ علم النحو_ على سبيل المثال _ الذي ظهر بسبب اللحن والبلاغة نتيجة للجدل الذي كان قائما أو محتدما بين علماء الكلام وهكذا..في بعض العلوم التي لها علاقة بالقرآن الكريم والحديث الشريف،ولعل من بين الشواهد الدالة على ظهور أنواع من الفنون الأدبية والنثرية، أو ما تعلق بدواوين الخلفاء والأمراء والولاة، فن **التوقيعات** الذي ظهر مع مراسلات الخلفاء الراشدين _في البداية_ لعمالهم بالأقاليم تحمل في طياتها هذه الرسائل المختصرة إما تنبيها أم توجيها أم تحذيرا وربما توبيخا وعزلا عند الإساءة وما إلى ذلك من المواقف والحالات التي تطرأ في حدود دولة الخلافة، بل وحتى مع جيرانها أو ممن يسالمونها أو يحاربونها من الأمم الأخرى مثل حال دولة الخلافة الأولى مع الفرس والروم وغيرها من الأمم المجاورة وانتشر هذا الفن أي: التوقيعات فيما بعد حتى صارفنا قائما بذاته، ولعل السؤال الذي يطرح نفسه في هذه العجالة ما معنى فن التوقيعات في اللغة ومتى ظهر؟ وما

[2] ابن خلدون:أبو زيد عبد الرحمن (المقدمة) ط1425/1هـ2004م،دار يعرب ،دمشق،430/1.)

هي مصادره ؟ ومواصفاته وأنواعه وأهميته الأدبية ؟ وقبل الذهاب للإجابة عن هذه الأسئلة كلها لابد لنا من استعراض بعض التعاريف أو المفاهيم التي لها علاقة بهذا الفن والذي نستهله في البداية بالتعريف اللغوي الذي يقول: **والتوقيع لغة**: مأخوذ من (وقَع على الشيء ومنه يَقَعُ وَقْعاً ووُقُوعاً سقَطَ ووَقَعَ الشيءُ من يدي كذلك وأَوْقَعَه غيرُه ووَقَعْتُ من كذا وعن كذا وَقْعاً ووَقَعَ المطرُ بالأَرض ولا يقال سَقَطَ هذا قول أَهل اللغة وقد حكاه سيبويه فقال سَقَط المطرُ مكانَ كذا فمكانَ كذا ومَواقِعُ الغيثِ مسا قطه ويقال وقَع الشيءُ مَوْقِعَه والعرب تقول وقَعَ رَبِيعٌ بالأرض يَقَعُ وُقُوعاً لأَوّلِ مطر يقع في الخَرِيفِ قال الجوهري ولا يقال سَقَطَ) [3].

ويعد ابن فارس (ت: 395هـ) من أوائل من أشاروا إلى المعنى الاصطلاحي للتوقيع حين قال:(ومن التوقيع ما يُلحق بالكتاب بعد الفراغ منه) [4].

وهو الذي أشار إليه القلقشندى في كتابه صبح الأعشى بقوله: (أما التوقيع فهو الكتابة على الرقاع والقصص بما يعتمده الكاتب من أمر الولايات والمكاتبات في الأمور المتعلقة بالمملكة والتحدث في المظالم وهو أمر جليل ومنصب حفيل إذ هو سبيل الإطلاق والمنع والوصل والقطع والولاية والعزل إلى غير ذلك من الأمور المهمات والمتعلقات السنية واعلم أن التوقيع كان يتولاه في ابتداء الأمر الخلفاء فكان الخليفة هو الذي يوقع في الأمور السلطانية وفصل المظالم وغيرها) [5].
وللقلقشندي كلام في هذا تحسن قراءته حيث تعرض إلى ذكر التوقيعات السلطانية أو الملوكية وبسط فيها القول كثيرا.

وبالعودة إلى الموسوعة العربية العالمية فإن ((التَّوقيعات أحد فنون النثر في الأدب العربي وهي مايوقّع به الخليفة أو الوزير أو الوالي على الشكاوى التي تُرفع إليه. ويرجع تاريخها إلى أيام الخليفة عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ حيث يُنسب إليه توقيع على كتاب وَالِيهِ على العراق، سعد بن

---

[3] ابن منظور:محمدبن مكرم الافريقي المصري الافريقي(لسان العرب،الطبعة الأولى دار صادر،بيروت لبنان) مادة(وقع).

[4] ابن فارس: أبو الحسن بن فارس أبو زكريا (مقاييس اللغة،تحقيق: عبد السلام محمد هارون)،: دار الفكر مادة (وقع) ط/1399هـ ــ 1979م، 145/6.

[5] القلقشندي:أبوالعباس أحمد (صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، تحقيق:يوسف الطويل) ،دار الفكر دمشق ، ط1/ 1987، 125/14.

أبي وقاص، وكان قد استأذنه في بناء بيتٍ، فكتب إليه: ابنِ ما يكنُّك[6] من الهواجر وأذى المطر[7].

ويرى بعض المؤرخين أن التوقيعات من فنون النثر التي أخذها العرب عن الفرس. إلاّ أن توقيع أمير المؤمنين عُمر وغيره يثبت أنها عربية الأصل وليس ذلك بالأمر الغريب على اللغة العربية التي من أبرز مميزاتها الإيجاز المفيد حين تدعو الحاجة.

وقد شاعت التوقيعات في العصر العباسي، ونُسبت إلى كثير من الخلفاء كالسفَّاح والمنصور والمهدي والرشيد، كما نسبت إلى بعض الوزراء والولاة.

وكثيرًا ما تكون التوقيعات آية قرآنية أو حديثًا شريفًا أو حكمةً أو مثلاً أو بيتًا من الشعر. وقد تكون عبارة مرتجلة من إنشاء الموقّع حسبما تمليه المناسبة.

ومن التوقيعات البليغة توقيع المأمون على رقعة متظلّم: ((ليس بين الحقّ والباطل قرابة.))[8].

وكان البريد يأتي من هذه الأقاليم البعيدة بمستجدات لايبت فيها إلا الخليفة الأمر الذي يتطلب الكثير من الوقت للإجابة أو الرد على هذه القضايا وكان الخلفاء يردون على كل هذه المستجدات بالاختصار المفيد في غالب الأحيان توجيها وتنبيها وتحذيرا فكانت هذه التوجيهات.

مادة التوقيعات:

والمتتبع لمصادر التوقيعات ومنابعها، يجد أن مادتها الأساسية التي استقى منها الموقعون توقيعاتهم، هي:القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف وغير ذلك من الشعر العربي والأمثال والحكم وبعض الاجتهادات لبعض الخلفاء والأمراء الذين كانوا عربا أقحاحا وكانت لغتهم سليمة وكيف لاوهم أهل البلاغة والفصاحة ويكفيك منهم الخلفاء الراشدين وخلفاء بني أمية وبنو العباس.

---

(6) يقال كنّ الشيء:أي استتر.

(7) ابن عبد ربه:أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي (العقد الفريد تحقيق:د.عبد المجيد الترحيني،دار الكتب العلمية،بيروت لبنان) ط1404/1هـ ـــ1983م، 287/4.

(8) الموسوعة العربية العالمية:نشر:(مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع ط1419/2هـ=1999م،323/7) الرياض، السعودية.

توقيعات الخلفاء الراشدين:

ومن أقدم التوقيعات في تاريخ الأدب العربي،ما كتب به أبو بكر الصديق رضي الله عنه إلى خالد بن الوليد[9] رضي الله عنه_حينما بعث للصديق خطابا من دومة الجندل يطلب أمره في أمر العدو،فوقع إليه أبو بكر:" ادن من الموت توهب لك الحياة "[10].

وكان هذا أول توقيع في الإسلام ثم تلاه عمر وعثمان وعلي وعندما شاعت الكتابة والتدوين لاسيما في العصور التي تلت هذه الفترة_ أي:العهد الراشدي _ وبالأخص العصر العباسي الأول والثاني.بسبب ازدهار الحياة الثقافية وامتزاج الثقافات وتنوعها،وتشجيع الخلفاء للعلم والعلماء والانفتاح على الثقافات الأخرى من فارسية وهندية ورومية وغيرها...

ومن أجمل التوقيعات التي تؤثر عن عمر بن الخطاب _ رضى الله عنه_ شكوى على أحد ولاته فوقع إليه «كثر شاكوك وقل شاكروك فإما اعتدلت وإما اعتزلت»

ومثل توقيع عثمان بن عفان_ رضي الله عنه_ في قصة قوم تظلموا من مروان بن الحكم وذكروا أنه أمر بِوَجْءِ[11] أعناقهم: (فإن عصوك فقل إني بريء مما تعملون)[12].

ووقع في قصة رجل شكا عيلة عليه: قد أمرنا لك بما يُقيمُك،وليس في مال الله فضل للمسرف[13]

وكذلك توقيع يزيد بن معاوية لمسلم بن عقبة المري عندما كتب إليه يبلغه بصنع أهل الحَرَّة،فوقع في أسفل كتابه:(فلا تأس على القوم الفاسقين)[14].

---

(9) خالد بن الوليد بن المغيرة المخزومي القرشي: أسلم قبل الفتح مات بحمص وقيل بالمدينة سنة21ه وكان مظفرا خطيبا فصيحا.

(10) أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي،تحقيق:محمد محي الدين عبد الحميد:(يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر ط2/1392ه=1973م) دار الفكر بيروت،لبنان.

(11) يقال وجأه باليد والسكين:أي ضربه.

(12) الشعراء: الآية:216.

(13) ابن عبدربه: (العقدالفريد:287/4).

(14) المائدة: الآية:26.

ووقع علي بن أبي طالب رضي الله عنه:إلى طلحة بن عبيد الله:في بيته يؤتى الحكم.[15].

ووقع في كتاب سلمان الفارسي_ وسأله كيف يحاسب الناس يوم القيامة؟_:يحاسبون كما يرزقون[16].

ومن توقيعات الأمويين:

معاوية بن أبي سفيان

في كتاب زياد يخبره بطعن عبد الله بن عباس في خلافته:إن أباسفيان وأبا الفضل كانا في الجاهلية في مسلاخ[17] واحد،وذلك حلف لايحله سوء أدبك.[18]

عبد الملك بن مروان

في كتاب أتاه من الحجاج (يشكو إليه نفرا من بني هاشم ويغريه بهم) **جنبني دماء بني عبد المطلب، فليس فيها شفاء من الطلب.**

وكتب إليه الحجاج يخبره بسوء طاعة أهل العراق وما يقاسي منهم،ويستأذنه في قتل أشرافهم،فوقع له: **إن من يُمن السائس أن يأتلف به المختلفون،ومن شؤمه أن يختلف به المؤتلفون.**[19].

ووقع عمرين عبد العزيز إلى عدي بن أرطأة في أمر عاتبه عليه:إن آخر آية أُنزلت ﴿**واتّقوايوماًترجعون فيه إلى الله**﴾[20].

ووقع عمر بن عبد العزيز أيضا إلى عامله على الكوفة_ وكتب إليه أنه فعل في أمرٍ كما فعل عمرين الخطاب_:﴿**أولئك الذين هَدى اللهُ فبهداهمُ اقتدهْ**﴾[21]

---

(15) المرجع السابق:287.

(16) المرجع السابق:288.

(17) المسلاخ:الإهاب (الجلد).

(18) المرجع السابق والصفحة نفسها.

(19) ابن عبدربه(العقدالفريد4/289).

(20) البقرة: الآية:280.

ووقع إلى رجل ولاه الصدقات،وكان دميما فعدل وأحسن:﴿**ولا أقول للذين تزدري أعيُنُكم لن يُؤتيهمُ اللهُ خيراً**﴾ [22].

وكتب قتيبة بن مسلم إلى سليمان بن عبد الملك يتهدده بالخلع،فوقع في كتابه:

زَعم الفرزدق أنْ سيقتلَ مِرْبعاً ** أبشر بطول سلامةٍ يا مِرْبعُ

ووقع في كتابه أيضا:العاقبة للمتقين. [23]

ومن توقيعات العباسيين:

السفاح [24]

كتب إليه جماعة من أهل الأنباريذكرون أن منازلهم أخذت منهم وأدخلت في البناءالذي أمربه ولم يعطوا أثمانها، فوقع: **هذا بناء أسس على غيرت قوى ثم أمر بدفع قيم منازلهم إليهم.**

ووقع في كتاب أبي جعفر وهويحارب ابن هبيرة بواسط:**إن حلمك أفسدعلمك،وتراخيك أثرفي طاعتك،فخذ لي منك،ولك من نفسك.**

وجاءه كتاب من أبي مسلم يستأذنه في الحج وفي زيارته،فوقع إليه:**لاحول بينك وبين زيارة بيت الله الحرام أوخليفته،وإذنك لك.** [25]

أبو جعفر:

وقع في كتابه إلى عبدالله بن علي عمه:**لاتجعل للأيام فيَّ وفيك نصيبامن حوادثها.**

---

(21) الأنعام: الآية:90.

(22) هود: الآية: 31.

(23) ابن عبدربه (العقدالفريد:290/4).

(24) أول خلفاءبني العباس(أبوالعباس عبدالله محمدبن علي بن عبدالله بن عباس بن عبد المطلب بن هاشم ولدسنة ثمان ومائة:وقيل أربعة بالحُميمة من ناحية البلقاء ونشأ بها وبويع بالكوفة وأمه ريطة الحارثية ينظر:السيوطي،(تاريخ الخلفاء،وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية دولة قطر،ط2.1434هـ – 2013م،ص417.

(25) ابن عبدربه (العقدالفريد:293/4).

ووقع إليه أيضا: ﴿**ادفع بالتي هي أحسن فإذاالذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم،ومايلقاها إلا الذين صبروا ومايلقاها إلا ذوحظ عظيم**﴾ [26]**فاجعل الحظ لك دوني يكن لك** [27].

المهدي :

وقع في قصة متظلمين شكوا بعض عماله:**لوكان عيسى عاملكم قدناه إلى الحق كما يقاد الجمل المخشوش**. يريد عيسى ولده. [28].

ووقع إلى صاحب أرمينية وكتب إليه يشكو سوءطاعة رعاياه(**خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين**) [29].

وإلى صاحب خراسان في أمرجاءه:**أنا ساهر وأنت نائم**. [30].

هارون الرشيد:

وقع إلى صاحب خراسان :**داوِ جُرحك لايتسع**.

وإلى عامله على مصر:**احذر أن تخُرْب خزانتي وخزانة أخي يوسف فيأتيك مني مالاقبل لك به ومن الله أكبر منه.**

ووقع في قصة رجل من البرامكة:**أنبتته الطاعة وحصدته المعصية.**

وإلى صاحب السندإذظهرت العصبية:**كل من دعا إلى الجاهلية تعجل إلى المنية**[31].

ووقع لصاحب خراسان (**داوِ جرحك لا يتسع**) [32].

---

(26) سورة فصلت الآيتين:34،33.

(27) السابق:4/294).

(28) نفسه:4/295).

(29) سورة الأعراف الآية199.

(30) المرجع السابق الصفحة نفسها.

(31) نفسه 4/297.

المأمون:

وقع إلى علي بن هشام في أمر تظلم:من علامة الشريف أن يظلم من فوقه،ويظلمه من دونه،فأي الرجلين أنت؟

وإلى هشام:لا أدنيك ولك ببابي خصم.

وإلى الرستمي في قصة من تظلم منه:ليس من المروءة أن تكون آنيتك من ذهب وفضة،وغريمك خاوٍوجارك طاوٍ[33].

2ـ **الحديث النبوي الشريف:**

وهناك من وقع بحديث نبوي أو بشطر منه كتوقيع جعفر بن يحي[34] في رجل شكا إليه العزوبة:(الصوم لك وجاء)[35].

3ـ **الأمثال:**

كتوقيع مروان بن محمد لنصر بن سيار:(يداك أوكتا وفوك نفخ)[36].

4ـ **الحكم:**

كتب بعض العمال إليه يستأذنه في مرمة مدينته،فوقع أسفل كتابه:ابنها بالعدل، ونقِّ طرقها من الظلم.

---

[32] نفسه296/4.

[33] المرجع السابق الصفحة نفسها 298/4.

[34] أبوالفضل جعفرين يحي بن خالد البرمكي وزر لهارون الرشيد وعظمت منزلته عنده،وزوجه أخته العباسة.ولكنه غضب عليه أخيرا فقتله ونكب أسرته،كان جوادا ذواقة للأدب و الشعر توفي ببغداد سنة197هـ ينظر:وفيات الأعيان لأبي العباس أحمد بن محمد بن أبي بكر ابن خلكان،تحقيق:إحسان عباس،دارصادر بيروت ط1900/، 328/1.

[35] لحديث عبد الله بن مسعود أن النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــقال:(يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغضُّ للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وِجاء). رواه البخاري ومسلم.

[36] الضبي: المفضل بن محمد بن يعلى بن سالم الضبي(أمثال العرب)تحقيق:إحسان عباس،دارالرائدالعربي بيروت ط2/ 1403هـ = 1983م 117/1.

وإلى بعض عماله في مثل ذلك:حصنها ونفسك بتقوى الله.

وفي قصة متظلم :العدل أمامك.

وفي رقعة امرأة حبس زوجها:الحق حبسه[37].

كتب عامل حمص – إلى عمر بن عبد العزيز. يخبره أنها احتاجت على حصن – فوقع عمر «حصنها بالعدل والسلام»)[38].

أو كتوقيع عبد الملك بن مروان:

كيف يرجون سقاطي بعدما ... شمل الرأس شيب وصلع[39].

وكانت هذه التوقيعات في غالب الأحيان تكتب مسجوعة مختصرة على الأمر المراد وكانت تحمل معان بلاغية ذات أهمية وقد حفظ لنا التاريخ طائفة لا بأس بها من التوقيعات ومادام الكلام منصبا حول هذا الفن وجب الحديث عن أهم المصادر والمؤلفات التي وردفيها الحديث عن التوقيعات التي يعد ظهورها مبكرا في الأدب العربي كما أسلفنا القول ولعل من أهم هذه المصادر:

العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي(ت:327ه)

نثر الدر للآبي(421ه)

صبح الأعشى في صناعة الإنشاء للقلقشندى (ت:821ه) .

خاص الخاص لأبي منصور الثعالبي(ت:429ه)

جمهرة خطب العرب في عصور العرب الزاهرة, لأحمد زكي صفوت. عدد الأجزاء : 4.

وغيرهم، وقد تأثر المغاربة بهذا الفن وتداولوه فيما بينهم لاسيما الحكام منهم ومما كتب في هذا الفن ما تذكره كتب المصادر الأندلسية عن تلك الحقبة التي كانت لا تقل شأنا عن بلاد المشرق من

---

(37) المرجع نفسه:291/4.

(38) الثعالبي: عبد الملك بن محمد بن إسماعيل(خاص الخاص شرحه وعلق عليه مأمون بن محي الدين الجنان،دار الكتب العلمية،بيروت لبنان،ط1414/1ه_1994م،ص128).

(39) ابن عبد ربه (العقدالفريد289/4).

حيث العلوم والمعارف والفنون الأدبية خاصة والتي كانت بالأساس تضاهي أو تضارع على الأقل المشرق من حيث البراعة والإبداع والتي لا تقل أهمية إذا ما قورنت بنظيرتها في المشرق كما أسلفنا القول.

ومن التوقيعات المغربية والأندلسية:

ومن التوقيعات المكتوبة في الرد على تظلمات الناس من عمال السلطان ما كتبه يوسف بن تاشقين (500هـ – 1107م) في عزل أحد ولاته: "أما بعد، فإنه قل شاكروك، وكثر شاكوك، وقد عزلناك عزلة تحط قدرك، وتخمد ذكرك، والسلام"[40].

ومن التوقيعات التي تندرج تحت الفكاهة والنادرة توقيع الخليفة المنصور يعقوب الموحدي (595هـ – 1199م) حيث أنه بعث إلى بعض عماله لينظر له رجلا لتأديب أولاده، فبعث العامل له برجلين، وكتب معهما كتابا يقول فيه: قد بعثت إليك برجلين أحدهما بحر في علمه والآخر بر في دينه، فلما امتحنهما الخليفة لم يرضياه، فوقع على ظهر كتاب العامل: "ظهر الفساد في البر والبحر"[41].

توقيعات الأمراء والكبراء

جعفر بن يحي

وقع في قصة محبوس(لكل أجل كتاب)

وفي مثله:العدل يوبقه والتوبة تطلقه.

وفي قصة منتصح:بعض الصدق قبيح.

الفضل بن سهل

وفي قصة متظلم:كفى بالله للمظلوم ناصرا.

([40]) ابن ليون التجيبي، لمح السحر من روح الشعر، تحقيق: منال منيزل، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، عمان، 1415هـ – 1995م، ص: 254.

([41]) .. بن الخطيب، شرح رقم الحلل، ص: 200-201، صلاح الدين الصفدي، الوافي بالوفيات، 8/29 ، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، 1420هـ – 2000م، نفح الطيب104/3.

وإلى رجل شكا غلبة الدين:قد أمرنا لك بثلاثين ألفاً وسنشفعها بمثلها، ليرغب المستمنحون.[42].

فصل في توقيعات الملوك والسادة المتقدمين

الإسكندر: [43]. لما توجه تلقاء دارا[44] رفع إليه أن دارا في ثمانين ألفا، فوقع: **القصاب لا يهوله كثرة الغنم.**

ورفع إليه صاحب جيشه يذكر ما يشير به بعض سقاط العسكر من اغتيال العدو، فوقع: **لا تستحقرن الرأي الجليل يأتيك به الرجل الحقير، فإن الدرة الكريمة لا يستهان بها لهوان الغائص.** ووقع إلى بعض قواده: **حبب إلى عدوك الفرار، بأن لا تتبعه إذا انهزم.**

يعبور: [45]. ملك الصين: كتب إليه صاحب جيشه في ركض الترك على أطراف مملكته، فوقع في كتابه: **الاحتمال حتى تمكن القدرة.**

بطلميوس الصغر: ملك الروم: وقع حين كتب إليه عامله على الشام في انحياز بعض الملوك الكبار إلى مستقرة: **لا تطمع في كل ما تسمع.**

نرسي بن بهرام: أحد الأكاسرة: رفع إليه أهل اصطخر يشكون احتباس القطر واشتداد القحط، فوقع: **إذا بخلت السماء بقطرها جادت يد الملوك بدرها، وقد أمرنا لكم بما يجبر كسركم ويغني فقركم.**

ورفع إليه الموبذان أن فلانا يحب ابنك فاقتله، فوقع: **إن قتلنا من يحبنا وقتلنا من يبغضنا يوشك أن لا يبقى على ظهرها أحد.**

---

(42) ابن عبدربه4(العقد الفريد 303/4).

(43) الاسكندر الكبير الملقب بذي القرنين(356 ــ323 ق.م) ولدفي مقدونية وتوفي في بابل.تعلم على أرسطو،فتح مصر حيث أسس الإسكندرية،وذو القرنين من أعظم الغزاة وأشجعهم،ينظر:ترجمته نهاية الأرب 235/2.

(44) الثعالبي:عبد الملك بن محمد بن إسماعيل أبو منصور(غرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم (دون.معلومات) ص402.

(45) المسعودي: علي بن الحسين بن علي، تحقيق: كمال حسن مرعي(مروج الذهب، 104/1) .المكتبة العصرية بيروت، ط1425/1هـــ2005م.

سابور بن سابور: كتب إليه عامل جور باتيان البرد على الورد وتعذر إقامة وظيفة ماء الورد للحضرة كالعادة كل سنة، فوقع: **في سلامة النفس والدين عوض عن كل فائت، فلو لم يخلق الورد لكان ماذا.**

بهرام جور: رفع إليه أن الرعية يقولون ليس للملك شغل غير الشرب واللهو والإكباب على العزف والقصف، فوقع: **هي سنن الملوك أسلافنا عند سكون الدهماء وخصب الرعايا.**

أنوشروان: رفع إليه أن النهر الذي حفره بالمدائن[46]. قد أضر بكثير من الضياع ضياع الناس، فوقع: **الضرر اليسير الخاص محتمل مع النفع الكثير العام.**

ورفع إليه أن وكيل النفقات يبدأ كل يوم بأجر نفسه، فوقع: **متى رأيتم نهرا يسقي أرضا قيل أن يشرب.**

ورفع ليه أن بيت ماله قد شارف الخلاء، فوقع: **الملك العادل لا يخلو بيت ماله.**

ورفع إليه أن الرعية تعيب الملك باصطناعه فلانا وليس له نسب ولا شرف، فوقع: **إن اصطناعنا إياه نسبه وشرفه.**

ورفع إليه لم عزلتم فلانا عن الإنهاء مع قديم خدمته وحرمته؟ فوقع: لأنه لطخ سمعنا بقذر السعاية فعافته أنفسنا.

ورفع إليه أن بزر جمهر يسأله الصفح، فوقع: **إذا أحصد الزرع فلم يحصد فسد.**

ورفع إليه أن في بطانة الملك جماعة قد فسدت نياتهم وهم غير مأمونين على الملك، فوقع: **نحن نملك الأجساد لا النيات، ونحكم بالعدل لا بالرضى، ونفحص عن الأعمال لا عن الأسرار.**

ورفع إليه ما بال الهموم لا تؤثر فيكم، فوقع: **لعلمنا بسرعة انتقالها عنا وانتقالنا عنها.**

أبرويز: رفع إليه أن غلاما له دعي إلى الباب فتثاقل عن الحضور، فوقع: **إن ثقل عليه المصير إلينا بكله فإنا نقنع منه ببعضه، ونخفف عليه المؤنة، فليحمل رأسه إلى الباب دون جسده.**[47]

([46]) الحموي: أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله (معجم البلدان،دار صادر بيروت، ط1397هـ ـ1977م،75/5.

([47]) الثعالبي أبومنصور (خاص الخاص ص123ـ 137).

هذا وفي الختام نقول إن فن التوقيعات في الأدب العربي يتسم بالإيجاز والاختصار كما يمتاز بالبديع من القول فهو فن رافق الكتابة الديوانية منذ نشأتها الأولى كما رافق الخلفاء والوزراء وبين خلال هذه الأزمنة المتعاقبة تراثا لا يستهان به إذا ما جمع من بطون الكتب والوثائق المحفوظة في خزائن الملوك والأمراء وهو يشكل بحق ذلك التراكم المعرفي الجاد في اتخاذ القرارات التي تشع بلاغة وبيان فضلا عن قيم أخلاقية واجتماعية وسياسية محنكة لا تعرف تأخرا في تطبيقها أو توان.

المصادر والمراجع:

1- القرآن الكريم

2- ابن خلدون:أبو زيد عبد الرحمن (المقدمة) ط1425/1هـ2004م،دار يعرب ،دمشق،1/430.)

3- ابن عبد ربه:أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي (العقد الفريد تحقيق:د.عبد المجيد الترحيني، دار الكتب العلمية،بيروت لبنان) ط1404/1هـ 1983م، 4/287.

4- ابن فارس:أبو الحسن بن فارس أبو زكريا (مقاييس اللغة،تحقيق: عبد السلام محمد هارون)،: دار الفكر مادة (وقع) ط/1399هـ 1979م، 6/145.

5- ابن ليون التجيبي، لمح السحر من روح الشعر، تحقيق: منال منيزل، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، عمان، 1415هـ – 1995م، ص: 254.

6- ابن منظور:محمدبن مكرم الافريقي المصري الافريقي(لسان العرب،الطبعة الأولى دار صادر،بيروت لبنان) مادة(وقع).

7- أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي،تحقيق:محمد محي الدين عبد الحميد:(يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر ط1392/2هـ=1973م) دار الفكر بيروت،لبنان.

8- الثعالبي: عبد الملك بن محمد بن إسماعيل(خاص الخاص شرحه وعلق عليه مأمون بن محي الدين الجنان،دار الكتب العلمية،بيروت لبنان،ط1414/1هـ1994م،ص128).

9- الثعالبي:عبد الملك بن محمد بن إسماعيل أبو منصور(غرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم (دون.معلومات) ص402.

10- الحموي:أبوعبدالله ياقوت بن عبدالله (معجم البلدان،دارصادربيروت،ط1397هـ ـ1977م،75/5.

11- السيوطي،(تاريخ الخلفاء،وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية دولة قطر،ط2.1434هـ – 2013م،ص417.

12- صلاح الدين الصفدي، الوافي بالوفيات، 8/29 ، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، 1420هـ – 2000م.

13- الضبي: المفضل بن محمد بن يعلى بن سالم الضبي(أمثال العرب)تحقيق:إحسان عباس،دارالرائدالعربي بيروت ط2/ 1403هـ = 1983م 117/1.

14- القلقشندي:أبوالعباس أحمد (صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، تحقيق:يوسف الطويل) ،دار الفكر دمشق ، ط1/ 1987، 125/14.

15- المسعودي: علي بن الحسين بن علي،تحقيق:كمال حسن مرعي(مروج الذهب، 104/1).المكتبة العصرية بيروت،ط1425/1هـ ـ2005م.

16- الموسوعة العربية العالمية: نشر: (مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع ط2 (1419هـ=1999م،323/7) الرياض، السعودية.

17- وفيات الأعيان وفيات الأعيان لأبي العباس أحمد بن محمد بن أبي بكر ابن خلكان،تحقيق:إحسان عباس،دارصادر بيروت ط/1900، 328/1.